بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة

في كل ناحية من نواحي النفوس الإنسانية ملتقى بسيرة عليٍّ بن أبي طالب رضوان الله عليه....

لأن هذه السيرة تخاطب الإنسان حيثما اتجه إليه الخطاب البليغ من سير الأبطال والعظماء، وتثير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشري من ضروب العطف ومواقع العبرة والتأمل.

في سيرة ابن أبي طالب ملتقى بالعاطفة المشبوبة والإحساس المتطلِّع إلى الرحمة والإكبار؛ لأنه الشهيد أبو الشهداء.

يجري تاريخه وتاريخ أبنائه في سلسلة طويلة من مصارع الجهادِ والهزيمة، ويتراءون للمتتبع من بعيدٍ واحدًا بعد واحدٍ شيوخًا جلَّلهم وقار الشيب ثم جلَّلهم السَّيف الذي لا يرحم، أو فتيانًا عوجلوا وهم في نضرة العمر يحال بينهم وبين متاع الحياة، بل يحال بينهم أحيانًا وبين الزادِ والماء، وهم على حياض المنية جياع ظماء..

وأوشكَ الألم لمصرعهم أن يصبغ ظواهر الكون بصبغتهم وصبغة دمائهم، حتى قال شاعر فيلسوف كأبي العلاء لا يظنُّ به التشيُّع بل ظنت بإسلامه الظنون:

وعلى الأفقِ من دماءِ الشَّهيدَ

يْنِ عليٍّ ونجلِهِ شاهدانِ

فهـــما في أواخـــرِ الليـــل فجـــرَا

نِ، وفى أولياتِـــــــــهِ شـــــــــفقَانِ

وهذه غاية من امتزاج العاطفة بتلك السِّيرة قلما تبلغها في سير الشهداء غاية، وكثيرًا ما تتعطش إليها سرائر الأمم في قصص الفداء التي عمرت بها تواريخ الأديان..

وفى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالخيالِ حيث تحلق الشاعرية الإنسانية في الأجواء أو تغوص في الأغوار.

فهو الشجاع الذي نزعت به الشاعرية الإنسانية منزع الحقيقة ومنزع التخيُّل، واشترك في تعظيمه شهود العيان وعشَّاق الأعاجيب..

ألم يحارب المردة في فلواتها؟..

ألم يخلق له الرواة أندادًا من المناجزين المبارزين لم يخلقهم الله؟..

ألم يستصغر عليه المحبُّون الغالبون في الحبِّ أن يصرع من عرفنا من خصومه فأنشأوا له من الخصوم المغلوبين من لم يعرفهم ولم يعرفوه؟..

ألم يوشك من وصفوه ووصفوا وقعاته وفتكاته أن يلحقوه بأبطال الأساطير وهو أصدق الأبطال في أصدق مجالٍ.

وتلتقي سيرته – عليه رضوان الله – بالفكر كما تلتقي بالخيال والعاطفة، لأنه صاحب آراء في التصوُّف والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء في الثقافة الإسلامية، ولأنه أحجى الخلفاء الراشدين أن يعد من أصحاب المذاهب الحكيمة بين حكماء العصور، ولأنه أوتي من

الذكاء ما هو أشبه بذكاءِ الباحثين المنقِّبين منه بذكاءِ الساسة المتغلبين فهو الذكاءُ الذي تحسه في الفكرة والخاطرة قبل أن تحسه في نتيجة العمل ومجرى الأمور.

وللذوق الأدبي -أو الذوق الفني- ملتقى بسيرته كملتقى الفكر والخيال والعاطفة؛ لأنَّه -رضوان الله عليه- كان أديبًا بليغًا له نهج من الأدب والبلاغة يقتدي به المقتدون، وقسطٌ من الذوق مطبوع يحمده المتذوِّقون، وإن تطاولت بينه وبينهم السنون. فهو الحكيم الأديب، والخطيب المبين، والمنشئ الذي يتصل إنشاؤه بالعربية ما اتصلت آيات الناثرين والناظمين..

وللنفس الإنسانية نواحيها الكثيرة غير نواحي العطف والتخيل والتفكير، وتذوق الحس الجميل من التعبير.

فمن نواحيها الكثيرة ناحية لم تنقطع قط في زمن من الأزمان، وهى ناحية الخلاف بين الطبائع والأذهان، أو ناحية الخصومة الناشبة أبدًا على رأي من الآراء، أو حقٍّ من الحقوق أو وطن من الأوطان.

فقد يفتر العقل والذوق بعض حين، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين، ولكنَ الذي لم يفتر قط ولا نخاله يفتر في حين من الأحايين خصام العقول وجدل الأسنة واختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين.

وإن ها هنا للمجال الرَّغيب والملتقى القريب في سيرة هذا الإمام الأوحد التي لا تشبهها سيرة في هذه الخاصة بين شتى الخواص، وهو رضوان الله عليه قد قال في ذلك أوجز مقال حين قال: "ليحبني أقوام حتى يدخلوا النار في حبي، ويبغضني أقوام حتى يدخلوا النار في

بغضي".. أو حين قال: "يهلك فيَّ رجلان: محبٌّ مفرط بما ليس فيَّ ومبغض يحمله شنآني على أن يبهتني".

وصدق الإمام في غلوِّ الطرفين من محبيه ومن مبغضيه. فقد بلغ من حبِّ بعضهم إياه أن رفعوه إلى مرتبة الآلهة المعبودين، وبلغ من كراهة بعضهم إياه أن حكموا عليه بالمروق من الدين، هنا الروافض الغلاة يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطيعونه.. واستتابهم فيصرون على الكفر أي إصرار، ويأمر بإحراقهم فيقولون وهم يساقون إلى الحفيرة الموقدة: إنه الله وإنه هو الذي يعذِّب بالنار!..

وهناك الخوارج الغلاة يعلنون كفره ويطلبون منه التوبة إلى الله عن عصيانه.. ويسبُّونه على المنابر كما سبّه خصومه الأمويُّون الذين خالفوهم في العقيدة ووافقوهم على السباب..

ميدان من ميادين الملاحاة لم يتسع قط ميدان متَّسعه في تواريخ الأبطال المعرَّضين للحبِّ والبغضاء، يقول أناس: إله. ويقول أناس: كافر مطرود من رحمة الله!..

وناحية أخرى من نواحي النفس الكثيرة تلاقيها سيرة الإمام في أكثر من طريق، وتلك هي ناحية الشكوى والتمرد أو ناحية الشوق إلى التجديد والإصلاح.

فقد أصبح اسم عليٍّ علمًا يلتف به كل مغصوب، وصيحة ينادي بها كل طالب إنصاف، وقامت باسمه الدول بعد موته لأنه لم تقم له دولة في حياته. وجعل الغاضبون على كل مجتمع باغ، وكل حكومة جائرة، يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الإصلاح،

أو كأنها المنفس الذي يستروح إليه مكظوم.. فمن نازع في رأي، ففي اسم عليٍّ شفاءٌ لنوازع نفسِه، ومن ثار على ضيم ففي اسم عليٍّ حافز لثورته ومرضاة لغضبه.

ومن واجه التاريخ العربيَّ بالعقل أو بالذوق أو بالخيال أو بالعاطفة فهناك ملتقى بينه وبين عليٍّ في وجهٍ من وجوهه، وعلى حالة من حالاته. وتلك هي المزية التي انفرد بها تاريخ الإمام بين تواريخ الأئمَّة الخلفاء، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائج تخلقها الطبيعة الآدميَّة إن قصَّر في خلقها التاريخ والمؤرِّخون.

وكلُّ ملتقى من هذه الملتقيات يدع الكاتب في حَذَر ما بعده من حَذَر؛ لأنَّه اشتباك العوامل النفسية يزيد صعوبةَ الباحث عن نفس من النفوس، ولا ينقصها أو يؤولُ بها إلى البساطة والوضوح، وكلَّما قلت هذه العوامل وانحصرت في ناحية من النواحي سهل الخلوص إلى مقطع الحقِّ فيها.

فالبطل الذي يلتقي بالفكر وحده أسهل من البطل الذي يلتقي بالفكر والعاطفة، وإن هذا لأسهل من الذي يلتقي بالفكر والعاطفة والخيال، وكل أولئك أسهل ممن يلتقي في ألف سنة متوالية بدخائل النفوس جميعًا من طموح إلى المثل الأعلى، أو حرص على الملاحاة، أو شغف بالبلاغة أو رياضة على التقوى، مزيدًا على التخيل والشعور والتفكير.

لهذا نعلم غير مترددين في علمنا أن واجبنا في "عبقرية الإمام" مرسوم الغاية والطريق، وهو واجب التبسيط والقصد إلى الخطة

الوسطى، وفى علمنا بهذا بعض التيسير، وان لم يكن فيه كل التيسير، نرجع " بعبقرية الإمام " إلى الحقيقة الوسطى.

نرجع من عشرين طريقًا إلى بداية واحدةٍ؛ لأن الطريق الواحدة لا تؤدِّي إليها أقرب أداءٍ. وحسبنا أننا عرفنا ضرورة الرجوع من كلِّ هذه الطرق إلى تلك البداية المقصودة فعلى بركة الله..

عباس محمود العقاد

obeikandl.com